ألقاب الشرف والتعظيم
عند العرب
للأب أنستاس مارى الكرملى

— ٢ —

ونعود إلى الكلام على الباب فنقول : إن القلقشندى قال (صبح الأعشى ٥ : ٤٧٢) : « الباب بباءين موحدتين مفخمتين فى اللفظ . وهو لقب على القائم بأمور دين النصارى الملكانية [أى الكاثوليك] بمدينة رومية ... وأصله البابا بزيادة ألف فى آخره ، والكتاب يثبتونها فى بعض المواضع ويحذفونها فى بعض ، وربما قيل فيه البابة بإبدال الألف هاء ، وهى لفظة رومية [أى لاتينية] معناها أبو الآباء ... » إنتهى المطلوب من إيراده

وقال ابن رُسته فى كتابه الأعلاق النفيسة ص ١٤٨ من طبعة الإفرنج : « مدينة الرومية وهى مدينة يدبر أمرها ملك يقال له الباب »

كنت أحب أن أتحدث عن الشاطئ الذى أوحش بعد إيناس

كنت أحب أن أدرس بعض الشؤون الأدبية أو الاجتماعية

كنت أشتهى أن أقول كلمة فى « الإنسان » الذى رُفع عنه بعض الحجاب فعرف من أسرار الوجود أشياء ، ثم كان حاله حال الطفل الذى وُهِبَ مسدّساً محشواً بالرصاص فهو يصوّبه إلى صدور الآمنين كيف شاء عقله الوليد ! وإنى لأخشى أن ينتقم الله من « الإنسان » فيسلبه القدرة على « استغلال » ما عرف من أسرار الوجود !

انتصف الليل أو كاد ، وسكتت المدافع منذ لحظات ، فهل هدأ البلبال الذى يساورنى كلما فكرت فى مصير الشرق ؟

ما أشقى الرجل الذى يعيش وهو موكّل بتعقب ما فى الدنيا من قُبح وحُسن ، وجهل وعلم ، وقنوط ورجاء ، وإن استباح القول بأنه الشقىّ السعيد

زكى مبارك

وفى نزهة المشتاق للادريسى ما هذا نصه (ص ٧٤) : « وفى مدينة رومة قصر الملك المسمى البابة ، وليس فوق البابة فوق فى القدر والملوك دونه »

وجاء فى تقويم البلدان لأبى الفداء فى مادة رومية : « وهى مدينة مشهورة ، ومقر خليفة النصارى المسمى بالباب » . وقال فى أهل بيزة : « وليس لهم ملك ؛ وإنما مرجعهم إلى الباب خليفة النصارى »

وذكر ابن الوردى فى كتابه خريدة العجائب طبعة مصر سنة ١٣٠٠ فى ص ٥٨ : « وبها قصر الملك المسمى البابا وهو قصر عظيم أجمع المسافرون على أنه لم يبن مثله على وجه الأرض »

وورد فى رحلة ابن بطوطة ذكر البابة فقال (فى ٢ : ٤٣٦ من طبعة باريس) : « ويأتى إليها البابة [وهو يريد هنا نائب البابة الذى سماه أبو شامة فى كتاب الروضتين فى ص ١٨٣ من طبعة باريس] مرة فى السنة ، وإذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك إلى لقائه ، ويترجل له ، وعند دخوله المدينة يمشى بين يديه على قدميه ، ويأتيه صباحاً ومساء للسلام عليه ، طول مقامه فى القسطنطينية حتى ينصرف » . اهـ

وابن خلدون تكلم مراراً على البابا ، من ذلك ما ورد فى مقدمته ونقلناه فى صدر هذا البحث ، ثم قال : « وأردوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف فى التعظيم فدعوه البابا ، ومعناه أبو الآباء . وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر ، على ما زعم جرجس بن العميد فى تاريخه ، ثم نقلوه إلى صاحب الكرسى الأعظم عندهم ، وهو كرسى رومة ، لأنه كرسى بطرس الرسول كما قدمناه ، فلم يزل سمة عليه إلى الآن ... »

وممن كرر اسم البابا مراراً المقريزى . فقد قال فى كتابه المواعظ والاعتبار طبعة بولاق (فى ٢ : ٤٨٤) : « وكان بطرك الإسكندرية يقال له البابا ... ومعناه أبو الآباء ؛ ثم انتقل هذا الإسم عن كرسى الإسكندرية إلى كرسى رومية . من أجل أنه كرسى بطرس ، رأس الحواريين ، فصار بطرك رومية يقال له البابا ، واستمر ذلك إلى زمننا الذى نحن فيه » . انتهى

ونحن لا نريد أن نمعن أبعد من هذا فى المدى لإيراد الشواهد على هذا الاسم ، وأنه لاتينى ، أى روى أو رومانى ، ففيها مجزأة ، لمن يتحرى الحق ، ويرمى إليه .

فهذه سبع لغات فى البابا ، وهى : الباب ، والپاب . والبابة ، والپابة ، والبابّ ، والبابا ، والپاپا . وكل كاتب ، حاول أن يؤدى اللفظ على ما ينطق به أصحابه ، ولم يحاول واحد منهم أن ينقل معناها إلى العربية ، بعكس ما يفعل اليوم بعض المتفصحين والمتعذلقين من السوريين وأشباههم

وأما البطرك ، فقد اختلفوا فى تعريبهم إياه اختلافهم فى الباب ، والإنبراطور . قال فى التاج فى (ب ط ر ك) : « البطرك ، كقمطر وجعفر ، أهمله الجوهرى . وقال الأصمعى : هو البطريق ، وهو مقدم النصارى ، وبه فسر قول الراعى يصف ثوراً وحشياً :

يعلو الظواهر فرداً لا أليف له مشى البطرك عليه ربط كتان

ويروى مشى النطول ، وهو الذى يتنطّل فى مشيته ، أى يتبختر . قاله الأزهرى ، أو هو سيّد المجوس . قال الأزهرى : وهو دخيل ليس بعربى » اهـ .

قلنا : البطرك : يونانى ، وهو فى هذا اللسان : Patriarcha أو Patriarches ومعناه الأب الأكبر أو الأب الحبى

وقال فى صبح الأعشى (٥ : ٤٧٣) : « البطرك : بباء موحدة مفتوحة ، ثم طاء مهملة ساكنة ، وبعدها راء مهملة مفتوحة ، ثم كاف فى الآخر . وهو لقب القائم بأمور دين النصرانية ... وأصله البطريك ، بزيادة ياء مثناة تحت مفتوحة ، بعدها راء ساكنة ، وهو لفظ روى ... ورأيت فى ترسل العلاء ابن موصلايا ، كاتب القائم بأمر الله العباسى فى تقليد أنشأه : القطرك بإبدال الباء الموحدة قافا ... »

وفى التنبيه والإشراف ، للمسعودى فى ص ١٥٩ من طبعة الأفرنج : « وأخبار أصحاب السكراسى الذين هم البطاركة أحدهم بطريك » ؛ قال ناشره فى الحاشية : « وكل مرة وردت البطريك ذكره الثعالبى صاحب الطائف باسم بطريك »

وقال المسعودى نفسه فى كتابه الآخر « مروج الذهب » (٣ : ٤٠٦ من طبعة باريس) : « وذلك أن مدينة أنطاكية بها كرسى البطريق المعظم عندهم »

وورد فى تاج العروس فى مادة بطرق : « ... وقيل البطريق هو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم ، وهو ذو منصب ، وقد يقدم عندهم . قلت : (أى الشارح وهو السيد مرتضى) هو بالرومية بترك ، قاله الجواليقى وغيره » . انتهى

قال الأب أنستاس مارى الكرملى : وهذا وهم من السيد الشارح ، لأن بترك هو تخفيف البطريك ، كما ذكره القلقشندى وأما البطريق فرومية أى لاتينية لا يونانية ، وهى من Patricius وبالفرنسية Patrice قال معجم لاروس الوسيط : « أنشأ منصب البطريق قسطنطين وقلده خلفاؤه أشهر ضباطهم ، ولما صارت دولة الغرب فى أقصى دركاتها اتخذ بعض الرؤساء لقب البطريق وكان يقابل البرنس أو نائب الملك . ولما أعلن أورستس بانبراطورية ابنه أوغسطس ، كان لقبه يومئذ بطريقاً وآيتيوس الذى أذل أتّيلا وغلبه ، كان لقبه بطريقاً يومئذ ، وتلقب بلقب البطريق أيضاً كلوڤيس ملك فرنسة ، وكذلك ملوك برغونية . ولقب الملوك البرابرة بطارقة قواد جيوشهم . وكان قياصرة الروم يجودون به على لباب الوظائف العليا من مدنية وحربية ، وبعد ذلك بكثير خلع البابوات هذا اللقب على ملوك الأفرنج لما استأنفوا التقاليد الانبراطورية ، فكان ممن تلقب به : پيبن ، وشرلمان ، ودُعوا بطارقة رومة ا . هـ تعريباً

ويُرى من هذه النصوص المنقولة هنا ، أن بعض الكتّاب لم يميزوا بين البطرك أو البطريك ، وبين البطريق . فصاحب الإسم الأول رجل دينى ، وصاحب الإسم الثانى رجل مَدَنى . واللفظ الأول يونانى الوضع ، واللفظ الثانى لاتينيٌّهُ . على أن كِلاَ الاسمين مأخوذ من معنى الأب . فالأول يعنى الأب الروحانى ، والثانى الأب النبيل أو الشريف . لكن لا بد من أن يُميّز الواحد من الآخر حرصاً على المعنى ، وتمسكاً بمدلولات الألفاظ الأصلية ، لكى لا يقع التباس فيها

ويُرى من هذه النصوص أيضاً أن فى البطريرك ثمانية أوجه معربة ؛ وهى : البَطْرَك ، والبِطْرَك ، والبَتْرَك ، والبطريك ، والبطريرك ، والفطرك ، والفطريرك ، والبطريق . فهل بعد هذا من ينكر هذه المفردات ، ومعانيها ولغاتها ، وقد أيدناها بالشواهد والنقول الموثوق بها ؟ وهل يستطيع المُتَبَلْتِمُون السوريون ، أن يضحكوا من كتّاب مصر ، لأنهم يستعملون فى مقالاتهم مثل سكرتير ، وبروفسور ، ودكتور ، وماجستير ، وليسانسيه ؛ وكلها ألقاب وضعها الغربيون كأنها أعلام ألقاب . ومن ثمّ لا حقّ للناطقين بالضاد أن يغيروها ، ولا أن يترجموها بأى صورة كانت . وقد جمعنا من الألقاب الغربية التى عرّبها العرب نحواً من مائتين وخمسين ؛ ولم يفكروا يوماً بوضع مقابلات لها فى لغتهم ، لا بل إن بعضهم ظنها مُضَرِيّة محضة ، ولا صلة لها بغير لغتهم . وأنا أذكر هنا بعضاً منها مصداقاً لكلامى . من ذلك ما يتمم بحثى السابق :

٦ — الدوفن

قال ابن مكرّم فى تركيب (دفن) ما هذه عبارته بنصها : « ودَوْفَن : اسمٌ . قال ابن سيده : ولا أدرى أرَجُلٌ أم موضع . أنشد ابن الأعرابى :

وعلمتُ أنى قد مُنيتُ بِنِيطِلِ
إذ قيل : كان من آل دَوْفَنَ قُسُّ

قال : فإن كان رجلاً ، فعسى أن يكون أعجمياً فلم يصرفه ، أو لعل الشاعر احتاج إلى ترك صرفه ، فلم يصرفه ؛ فإنه رأىٌ لبعض النحويين . وإن كان عنى قبيلة ، أو امرأة ، أو بقعة ، فحكمه ألا ينصرف ؛ وهذا بيّن واضح . اه

وقد نقل صاحب التاج عبارة اللسان من غير أن يشير إلى مأخذها مع أن النص واحد بلا أدنى تغيير ، سوى أنه قال : قُسٌّ وهى قس ؛ وقال : إن كان عنى قبيلة والصواب وإن كان عنى قبيلة

وقال صاحب القاموس : ودوفن رجل وامرأة . وفى بعض النسخ : رجل أو امرأة

قلنا : فما معنى هذه اللفظة ، ومن أى لغة هى ؟ فعند الوقوف على الحقيقة ، تضمحل الآراء المتضاربة ، ويقبض على ناصية الحق فنتمسك بها

أما رأينا فهو أنها من الفرنسية Dauphin على حد اللفظ العربى ومعناه . وكان أصل وضعه لقباً للثنيان الفرنسى أى للذى يكون دون السيد أو الملك فى فرنسة ؛ ثم غلب هذا اللقب على كثيرين من أولئك الأشراف ، فصار بمنزلة العَلَم لهم ، وأول من لقب بذلك ، كان فى عهد كيك الرابع Guigue IV وكان أحد قماسة ڤينّة الفرنسية ، المتوفى سنة ١١٤٢ للميلاد . وفى أوڤرنية كان أحد القماسة فى عهد غليوم السابع . وكان لقب به لأول مرة سنة ١١٥٢ ؛ ثم انقلب هذا اللقب فصار علماً لأولئك الرجالات ، ومن أراد التفصيل فليراجع كتب التاريخ والمعاجم فى مادة دَوْفن . وهناك دوفن اشتهر بدوفن أوڤرنية وهو شاعر بروڤنسى ، من المائة الـ ١٢ و الـ ١٣ ، واسمه الحقيق روبر الأول Robert 1er ، وكان دوفناً من سنة ١١٦٩ إلى سنة ١٢٣٤

ودوفن أيضاً امرأة الدوفن ، وبالفرنسية Dauphine والأحسن أن يقال فى العربية دَوْفَنة لكى لا تلتبس بالمذكر ودَوْفن أيضاً ، والأحسن دَوْفِينَه Dauphiné ، عَلَم بقعة فى فرنسة . فصحّ بهذا التأويل أن (دوفن) كلمة أعجمية وإنها أتت بمعنى اسم رجل ، واسم امرأة ، واسم بقعة ، ومما يؤيد أن الدوفن هو بالتأويل الذى ذكرناه أن الشاعر قال :

« كان من آل دوفن قُسُّ »

والقُسُّس هو Comes سابقاً ، والذى نقل بعد ذلك إلى صورة كُنْت Comte ومعلوم أن البيت الذى فيه دَوْفن ، قد يكون فيه عدة قَماسة ، إذا كان فيه عدة ذكور ، غير البكر ونحن نذكر بعد هذا القسس ونبحث فى مختلف لغاته

ومن الغريب أن المعاجم الإفرنجية ، وبالعكس أى العربية الفرنجية . لم تذكر مقابلاً للفرنسية Dauphin . كما لم تذكر مقابلاً أفرنجياً للدَوْفن . فمعجم بادجر الانكليزى العربى ، (وهو